تأمّلات أهل الصّدق والتّحقيق في سورة سيّدنا يوسف الصِّدِّيق عليه السّلام

2022-12-02

الحمد لله الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا. الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ. وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا. فسبحانه من إلهٍ غَنِيٍّ حَمِيدٍ, أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ المَجِيدَ, يَتَدَبَّرُ آيَاتِهِ كُلُّ ذِي عَقْلٍ رَشِيدٍ, وَأَشْهَدُ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، تفضّل على عباده المؤمنين بمِنّةٍ لا تُضاهى ولا تُدانى. وهدانا سنّة مباركة وقرآنا. هو النُّور المبين. فأعظِم به كلامًا للمولى وبرهانا. أُنزِل هدًى للعالمين. وللحق تبصرةً وتِبيانا. ((إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا)). وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وصفيّه من خلقه وخليله. عَلَم التقى، ومنار الهدى، وخَيْرُ مَنْ أَوصَى وَوَجَّهَ، وَأَرْشَدَ ونَبَّهَ، أَرْسَلَهُ رَبُّهُ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، فبلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمّة، وكشف الله به الغمّة، وجاهد في الله حق جهاده، وتركنا على المحجّة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فجزاه الله خير ما جازى نبيّاً عن أمّته، ووفّقنا جميعاً لاتّباع سنّته، وحشرنا يوم القيامة في زمرته، وجعلنا من أهل شفاعته.

يا أيّها الناس هذا سيّدُ الأُمَمِ * في طاعة الله رجّانا ورغّبنَا
ومِنْ مخالفة الرحمان رهّبنا * يا أمّةً سعِدَتْ هذا نبيّكمُ
صلّوا على الهادي إلى الدّين القويمْ

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيّدنا محمد. صفوة الأصفياء المتوَّجين بتاج الجلال والجمال. وعلى آله الذين هم خير عِتْرة وأشرف آل. وصحابته نجوم الهداية وحسنات الأيام والليال. صلاة تصلح بها منّا الأقوال والأفعال. وتوفّقنا بها لصدق النية وصالح الأعمال. وتلهمنا بها حُجَّتَنَا

المنجية يوم العرض والسؤال. وتجعلنا بها من الآمنين المطمئنّين عند تراكم الزلازل والأهوال. يا من إليه المفزَع في الحال والمآل. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. لَقَدْ سَاقَ اللهُ فِي كِتَابِهِ الكَرِيمِ قِصَصَ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ. عليهم الصلاة والتسليم. تَسْلِيَةً لِرَسُولِهِ وحبيبه سيّدنا ومولانا مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وَحَثًّا لَهُ صلى الله عليه وسلم عَلَى الإقتِدَاءِ بِهِمْ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى في سوة الأنعام:((أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ))، وَالتِزَامًا بِهَذَا الأَمْرِ الإِلَهِيِّ كَانَ صلى الله عليه وسلم إِذَا أُوذِيَ تَذَكَّرَ إِخْوَانَهُ الأَنْبِيَاءَ، وَأَعْلَنَ تَمَسُّكَهُ بِالتَّأَسِّي وَالاقتِدَاءِ؛ فَكَانَ يَقُولُ:((رَحِمَ اللهُ أَخِي مُوسَى؛ لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ)). إِنَّ فِي قِصَصِ الأَنْبِيَاءِ عِبَرًا يَنْتَفِعُ بِهَا صَاحِبُ البَصِيرَةِ؛ كما قال تعالى في سورة يوسف:((لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ))، وَلا عَجَبَ فِي ذَلِكَ وَلا غَرَابَةَ، فَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ الأَطْهَارَ. وَالمُرْسَلِينَ الأَخْيَارَ. اختَصَّهُمُ اللهُ بِالمُعْجِزَاتِ. وَالآيَاتِ البَاهِرَاتِ، فَهَدَى بِهِمْ مِنَ الضَّلالَةِ، وَأَنْقَذَ بِهِمْ مِنَ الجَهَالَةِ، وَجَعَلَهُمْ أَدِلاَّءَ عَلَى الهُدَى، مُنْقِذِينَ مِنْ سُبُلِ الغَوَايَةِ وَأَسْبَابِ الرَّدَى، مَنْ تَأَسَّى بِهِمْ تَحَقَّقَ فَلاحُهُ، وَتَيَقَّنَ نَجَاحُهُ. أيّها المسلمون. وَمِنْ سُوَرِ القُرآنِ الَّتِي حَكَتْ أَخْبَارَ الرُّسُلِ وَالأَنْبِيَاءِ: سُورَةُ يُوسُفَ، فَهِيَ سُورَةٌ تَمْتَلِئُ بِالعِبَرِ وَالعِظَاتِ، إِنَّهَا مَوْرِدٌ غَزِيرُ المَادَّةِ لِمَنْ يُرِيدُ تَعَرُّفَ الأَخْلاقِ الجَلِيلَةِ، وَالصِّفَاتِ النَّبِيلَةِ؛ فَقَدْ نَشَأَ سيّدنا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَشَبَّ فِي بَيْتٍ تَوَارَثَ النُّبُوَّةَ، وَالأُسْرَةُ الصَّالِحَةُ مَنْبِتٌ طَيِّبٌ لأَفْرَادِهَا؛ فَفِيهَا يَتَغَذَّى الأَولادُ وَالأَحفَادُ بِالأَخْلاقِ الكَرِيمَةِ، فَيَنْشَؤونَ نَشْأَةً طَيِّبَةً مُستَقِيمَةً، وَلَقَدْ عَرَّفَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَخَاهُ يُوسُفَ فَقَالَ:((الكَرِيمُ بنُ الكَرِيمِ بنِ الكَرِيمِ بنِ الكَرِيمِ: يُوسُفُ بنُ يَعقُوبَ بنِ إِسحَاقَ بنِ إبرَاهِيمَ))، وَقَدْ حَرَصَ سيّدنا يَعقُوبُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ عَلَى أَنْ يَنْشَأَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ نَشْأَةً صَالِحَةً؛ فَذَكَّرَهُ بَمَجْدِ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ؛ لا لِيفْخَرَ بِهِمْ بَلْ لِيَلْحَقَ بِهِمْ، وَيَسِيرَ عَلَى دَرْبِهِمْ؛ فَقَالَ لَهُ:((وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ))، إِنَّ المَرْءَ إِذَا شَبَّ عَلَى أَحْسَنِ الأَوْصَافِ وَأَكْمَلِهَا، وَأَشْرَفِهَا وَأَعْظَمِهَا، وَكَفَّ عَنِ اتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ وَحَصَرَ فِكْرَهُ وَعَمَلَهُ فِيمَا يُفِيدُ فِي دِينِهِ وَدُنيَاهُ وَأُخْرَاهُ آتَاهُ اللهُ عِلْمًا وَزَادَهُ فَهْمًا، يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي شَأْنِ سيّدنا يُوسُف عَلَيْهِ السَّلاَمُ:((وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ))، إِنَّ المُؤْمِنَ الحَقَّ يَتَمَسَّكُ بِالمَبْدَأِ الحَقِّ لا يَحِيدُ عَنْهُ، وَإِنْ تَعَرَّضَ لابتِلاءٍ لَجَأَ إِلَى اللهِ وَاعتَمَدَ عَلَيْهِ، وَفَوَّضَ كُلَّ أُمُورِهِ إِلَيْهِ، فَصَارَ فِي كَنَفِ اللهِ وَرِعَايَتِهِ، وَحِفْظِهِ وَحِمَايَتِهِ، وَمَنْ كَانَ اللهُ مَعَهُ كَانَ مَعَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَمَنْ فَاتَهُ عَوْنُ اللهِ فَاتَهُ كُلُّ شَيْءٍ؛ فَلْيَستَعِنْ كُلُّ مُؤْمِنٍ بِاللهِ كَمَا استَعَانَ سيّدنا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَحَفِظَهُ اللهُ وَحَمَاهُ، وَأَعْلَى مَكَانَتَهُ، وَرَفَعَ بَيْنَ الخَلْقِ مَنْزِلَتَهُ، وَعِنْدَمَا ابتُلِيَ سيّدنا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بَكَيْدِ الكَائِدِينَ لَجَأَ إِلَى اللهِ وَاحتَمَى بِحِمَاهُ؛ فَرَدَّ اللهُ عَنْهُ كَيْدَ مَنْ كَادَ، وَحَسَدَ الحُسَّادِ، ((فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)). أيّها المسلمون. لَقَدْ دَعَا سيّدنا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ مَنْ ضَلَّ عَنْ طَرِيقِ الحَقِّ فَعَبَدَ غَيْرَ اللهِ، دَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ، مُصْطَحِبًا مَعَهُ الكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ الرَّقِيقَةَ، مُبْتَعِدًا عَنْ كُلِّ لَفْظٍ يَجْرَحُ أَوْ قَولٍ يَفْضَحُ، رَجَاءَ هِدَايَتِهِمْ وَرَغْبَةً فِي سَعَادَتِهِمْ، يَقُولُ سيّدنا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لِهَؤُلاءِ:((يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ))، وَهَكَذَا وَضَعَهُمْ سيّدنا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ أَمَامَ الحَقِيقَةِ النَّاصِعَةِ، بِنَصِيحَةٍ رَقِيقَةٍ نَافِعَةٍ، ثُمَّ تَرَكَهُمْ لِيُعْمِلُوا عُقُولَهُمْ وَيَتَفَكَّرُوا، وَحَسْبُهُ أَنَّهُ أَرشَدَ وَنَبَّهَ، وَوَعَظَ وَوَجَّهَ، إِنَّهُ أُسلُوبُ الإِرْشَادِ الَّذِي يُقَرِّبُ وَلا يُبَعِّدُ، وَيُبَشِّرُ وَلا يُنَفِّرُ، وَيَجْمَعُ وَلا يُفَرِّقُ. أيّها المسلمون. لَقَدْ ضَرَبَ سيّدنا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لِلنَّاسِ المَثَلَ الأَعلَى لِلصَّبْرِ بِشَتَّى أَنْوَاعِهِ، فَمِنْ صَبْرٍ عَلَى الإِيذَاءِ، إِلَى صَبْرٍ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَالمُغْرِيَاتِ، إِلَى صَبْرٍ عَلَى الشَّدَائِدِ، كَمَا ضَرَبَ المَثَلَ الأَعلَى فِي الشُّكْرِ فَجَمَعَ بَيْنَ الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ وَهُمَا جَنَاحَا الإِيمَانِ إِذْ يَقُولُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه

وسلم:((الإِيمَانُ نِصْفَانِ: نِصْفٌ صَبْرٌ وَنِصْفٌ شُكْرٌ)). لَقَد تَقَلَّبَ سيّدنا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فِي حَالَتَيِ البُؤْسِ وَالرَّخَاءِ، وَالضَّرَّاءِ وَالسَّرَّاءِ؛ فَلَمْ يَجْـزَعْ عِنْدَ الشِّدَّةِ وَالعُسْرِ، وَلَمْ يَبْطَرْ عِنْدَ الرَّخَاءِ وَاليُسْرِ، وَهَذَا شَأْنُ المُؤْمِنِينَ المُفْلِحِينَ، فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ. أيّها المسلمون. العَفْوُ عِنْدَ المَقْدِرَةِ مِنْ صِفَاتِ عِبَادِ اللهِ المُخْلَصِينَ، وَ سيّدنا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ بِشَهَادَةِ القُرآنِ الكَرِيمِ إِذْ يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ:((إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ))، وَلَقَدْ تَمَكَّنَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ مِنْ إِخْوَتِهِ الَّذِينَ كَادُوا لَهُ، فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلاَّ أَنْ عَذَرَهُمْ وَعَفَا عَنْهُمْ، لَقَدِ اعتَذَرُوا لَهُ قَائِلِينَ:((تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ))، فَأَجَابَهُمْ قَائِلاً:((لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ))، وَلَقَد تَمَثَّـلَ سيّدنا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِأَخِيهِ سيّدنا يُوسُف عَلَيْهِ السَّلاَمُ حِينَ تَمَكَّنَ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ آذَوهُ وَحَارَبُوهُ، وَأَخْرَجُوهُ مِنْ بَلَدِهِ؛ فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلاَّ أَنْ قَالَ لَهُمْ:((مَا تَظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ اليَوْمَ؟ قَالُوا: خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ وَابنُ أَخٍ كَرِيمٍ، فَقَالَ لَهُمْ: لا أَقُولُ لَكُمْ إِلاَّ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ: لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، اذهَبُوا فَأَنْـتُمُ الطُّـلَقَاءُ)). أيّها المسلمون. قَدْ يُوَاجِهُ بَعْضُ النَّاسِ مَكَايِدَ تُكَادُ لَهُمْ فِي الخَفَاءِ، مِنَ القَرِيبِ لا مِنَ البَعِيدِ، فَيَعِـزُّ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَيَقُولُونَ: لَوْ أَنَّ المَكِيدَةَ جَاءَتْ مِنْ بَعِيدٍ فِي النَّسَبِ لَمَا شَعَرْنَا بِأَلَمٍ وَنَصَبٍ، فَعَلَى هَؤُلاءِ أَنْ يَتَدَبَّرُوا سُورَةَ يُوسُفَ؛ فَلَهُمْ فِيهَا عَزَاءٌ، مَعَ مَا يَحْصُلُونَ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَجَزَاءٍ، وَقَد تُحَدِّثُ المُؤْمِنُ نَفْسَهُ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْ أَخِيهِ؛ لأَنَّهُ آذَاهُ وَطَعَنَهُ فِي الظَّهْرِ، وَأَوْصَلَهُ إِلَى دَرَجَةِ الغَيْظِ وَالقَهْرِ؛ فَعَلَى هَذَا أَنْ يَقْرَأَ سُورَةَ يُوسُفَ؛ لِيَجِدَ عِظَمَ الأَجْرِ وَالجَزَاءِ، نَظِيرَ العَفْوِ عَمَّنْ أَسَاءَ، وَعَلَى مَنْ وَجَدَ مِنْ أَولادِهِ أَذًى وَشَرًّا أَنْ يَقْرَأَ سُورَةَ يُوسُفَ؛ فَفِيهَا سَلْوَاهُ فَقَدْ لَقِيَ يَعْقُوبُ عَلَيْـهِ السَّلاَمُ مِنْ أَوْلادِهِ مَا لَقِيَ فَتَحَمَّـلَ، وَفَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَى اللهِ وَصَبَرَ وَتَجَمَّـلَ، وَعَلَى مَنِ اتُّهِمَ ظُلْمًا وَزُورًا، وَادُّعِيَ أَنَّهُ فَعَلَ إِثْمًا وَفُجُورًا أَنْ يَقْرَأَ سُورَةَ يُوسُفَ؛ فَقَدِ اتُّهِمَ سيّدنا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فِي عِفَّتِهِ وَهُوَ العَفِيفُ، وَطُعِنَ فِي شَرَفِهِ وَهُوَ الشَّرِيفُ؛ فَصَبَرَ وَاتَّقَى، وَسَمَا وَارتَقَى،

حَتَّى تَبَوَّأَ أَرفَعَ المَنَاصِبِ وَأَعْظَمَ المَرَاتِبِ. أيّها المسلمون. فَاتَّقُوا اللهَ. عِبَادَ اللهِ، وَخُذُوا مِنْ قِصَصِ الأَنْبِيَاءِ العِبَرَ وَالعِظَاتِ، يَمْنَحْكُمُ اللهُ رِفْعَةَ المَكَانَةِ وَسُمُوَّ الدَّرَجَاتِ. وَتَمَسَّكُوا بِمَكَارِمِ الأَخْلاقِ؛ تَنَالُوا الرِّضَا مِنَ اللهِ العَلِيمِ الخَلاقِ. نسأل الله عزَّ وجلَّ أن يُطهِّر نفوسنا، وأن يُزكِّيها، وأن يطهِّر قلوبنا، وأن ينزع منها كلَّ غِشٍّ وحسدٍ لأحدٍ من المسلمين، وأن يملأ قلوبنا بالإخلاص لحضرته، والصدق لأهل قربه ومودّته، والصفاء في المعاملة مع سائر أحبّته، وأن يُرينا الحقَّ حقًّا ويرزقنا اتباعه، ويُرينا الباطل زاهقاً وهالكاً ويرزقنا اجتنابه. اللهم اجعلنا صالحين مصلحين غير فاسدين ولا مفسدين. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اه.